السعادة الراسخة في المسيح

بقلم
جيرميا باروز

اسم الكتاب : السعادة الراسخة في المسيح
اسم المؤلف : جيرميا باروز
الناشر : الرابطة الإنجيلية بالشرق الأوسط ت : ٤٨٤٨٠٠٨
المطبعة : شركة الطباعة المصرية ت : ٦١٠٠٥٨٩ / ٦١٠٢٠٩٥
رقم الإيداع : ٧٦٤٦/ ٢٠٠٧

سلسلة التراث الإنجيلي

التراث الإنجيلي غني بالكتابات التي ظهرت مع حلول عصر الإصلاح في القرن السادس عشر، وكذلك المؤلفات الروحية التي صدرت بعد ذلك. بعض هذه الكتابات ترجم إلي لغات كثيرة وأعيدت طباعتها عدة مرات، مثال ذلك كتابات المُصلحين لوثر و كلفن و مجموعة من مؤلفات القادة والمفكرين الإنجيليين، في الأجيال المتتابعة، وقادة الفكر الإنجيلي المصلَح.

ما كتبه المؤلف جيرميا بارُوز، تسبب في اختبار الكثيرين من المؤمنين لتلك السعادة الراسخة التي تهبها شركتنا مع الرب يسوع . في هذا الكتيب تقدم الرابطة تعريبًا لصيغة مبسطة موجزة لذلك العمل المبارك.

البركة، كل البركة هي في الشركة الحميمة و المتواصلة، مع من وهب نفسه لتكون لنا الحياة الفضلى، فالقرب من الرب يسوع هو أساس السعادة الراسخة.

القس/ فيكتور عطا لله
المدير العام / المؤسس
الرابطة الإنجيلية في الشرق الأوسط (ميرف)

محتويات الكتاب

		صفحة
الفصل الأول	السعادة الحقيقية	٥
الفصل الثاني	سر السعادة	٨
	أسئلة دراسية في الفصلين الأول والثاني	١٤
الفصل الثالث	وعود الله	١٥
الفصل الرابع	التحق بمدرسة السعادة	١٨
الفصل الخامس	المكافأة الإلهية	٢٥
	أسئلة دراسية في الفصول من الثالث وإلى الخامس	٢٨
الفصل السادس	سلبيات التذمر	٢٩
الفصل السابع	كُفّ عن التذمر	٣٥
الفصل الثامن	لا عذر لك	٣٧
	أسئلة دراسية في الفصول من السادس إلى الثامن	٤٠
الفصل التاسع	وسيلة السعادة	٤١
الفصل العاشر	ثبات السعادة	٤٤
	أسئلة دراسية في الفصلين التاسع والعاشر	٤٦

الفصل الأول

السعادة الحقيقية

كلنا نحب أن نكون سعداء، لكن ذلك ليس سهلا، والمشكلة أننا نريد أن نمتلك كل شيء يقدمه هذا العالم، إعتقادا منا أن هذا سيسعدنا. لكن الرسول بولس كان لديه موقف مختلف تماما، فكتب يقول: "فإني قد تعلمت أن أكون مكتفيا بما أنا فيه. أعرف أن أتضع وأعرف أيضا أن أستفضل. في كل شيء وفي جميع الأشياء قد تدرَّبت أن أشبع وأن أجوع وأن أستفضل وأن أنقص" (فيلبي٤: ١١، ١٢).

إن الله هو المصدر الوحيد للسعادة الحقيقية، فهو لا يحتاج لأي شيء أو لأي شخص، ليجعله سعيدا. حتى قبل أن يخلق العالم، كان الأقانيم الثلاثة للثالوث الأقدس سعداء تماما بعضهم ببعض. وما يفعله الله للمؤمنين هو أن يجعلهم سعداء مثله. هذا أمر ضروري، لأنهم ليسوا من الصلاح أو القوة ما يكفي ليُسعِدوا أنفسهم. إن الله يعطيهم جميع ما يحتاجون إليه، كما كتب يوحنا: "ومن ملئه نحن جميعا أخذنا، ونعمة فوق نعمة" (يوحنا١: ١٦). لذلك فإن المؤمنين يمكنهم أن يكونوا سعداء دائمًا، حتى عندما لا يكون لديهم إلا القليل جدا مما يقدمه هذا العالم؛ لأن لديهم البركات الروحية التي يمنحها الله؛ ففي المسيح لهم كل ما يحتاجون إليه.

هذه السعادة المسيحية تسمَّى أحيانا "القناعة". كتب بولس الرسول: "وأما التقوى مع القناعة فهي تجارة عظيمة. لأننا لم ندخل العالم بشيء، وواضح أننا لا نقدر أن نخرُج منه بشيء. فإن كان لنا قوت وكسوة فلنكتف بهما. وأما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء فيسقطون في تجربة..." (١تي٦: ٦- ٩). "لتكن سيرتكم خالية من محبة المال. كونوا مكتفين بما عندكم لأنه قال: لا أهملك ولا أتركَ" (عب١٣: ٥).

وأول ما يمكن قوله عن هذه السعادة المسيحية، هو أنها تنبع من الداخل. من الممكن أن نعطي انطباعا بأننا سعداء بما أعطاه الله لنا، حيث أننا لا نشكوا، بينما نكون في أعماقنا متذمرين، لكن الله يرى حقيقة ما نفكر فيه. لقد كتب داود: "إنما لله انتظري يا نفسي" (مز٦٢: ٥)، لأنه كان يعرف أن هذا هو الطريق الوحيد ليكون سعيدا حقا. وبالمثل فإن هذه الثقة في الله، وهذه السعادة التي تنبع من أعماق المؤمنين، تؤثر في كل جزء فيهم. كان داود يعرف أن الله هو المسيطر على كل شيء، ولكنه مع ذلك تعرض للإحباط، لأنه لم يدع هذه الحقيقة تؤثر تأثيرا فعالا في الطريقة التي كان يفكر بها، وهذا كان السبب الذي جعله يكتب: "لماذا أنت منحنية يا نفسي ولماذا تئنِّين فيَّ؟" (مز٤٢: ٥). علينا – كما كان عليه – أن نضع قلوبنا على السعادة التي تنبع من الداخل، وتجعلنا سعداء سعادة تامة، مثلما يحتبس دفء أجسادنا بملابس الشتاء ونستمتع بدفء تام، هكذا السعادة المسيحية، إنها سعادة دائمة.

والأمر الثاني الذي يمكن أن نقوله عن السعادة المسيحية، إنها باقية حتى في وجود المآسي. عندما يواجه المؤمنون المشاكل، فإنهم يحزنون مثل باقي الناس، وعندما يكون الآخرون في ضيق، فإن المؤمنين يحزنون معهم. إنهم يصلُّون من أجل أنفسهم ومن أجل المتألمين. وهذا ما يجدر بنا أن نفعله، لأن الرب يسوع الذي تألم مجرَّبا، "يقدر أن يعين المجرَّبين" (عب٢: ١٨). إن المؤمنين الناضجين، الذين لديهم المشاكل، يصلُّون إلى الله ولا يتذمرون، وعندما يجرَّبون بأن يتذمروا، فإنهم يضبطون أنفسهم. إنهم لا يتذمرون على الله بل يداومون على طاعته ومحبته. وعندما يتحدثون عن مشاكلهم، يكون ذلك في الصلاة لأنهم مازالوا يؤمنون بأن الله قادر أن يعينهم.

والجانب الثالث والهام للسعادة المسيحية هو أنها عمل الله، فهي ليست نتيجة لمزاج طبعي سعيد بطبيعته، ولا هي نتيجة لرفض الإنغماس فيما يجري في العالم، فحتى غير المؤمنين يتجنبون هذا الإنغماس. لكن السعادة المسيحية أعظم بكثير من "محاولة تجنب القلق". إن لها عنصرًا إيجابيا أيضا؛ فالمؤمن يريد أن يكون سعيدا باستمرار لأن ذلك يمجد الله.

وبالتالي فالجانب الرابع الذي يمكن أن نذكره عن السعادة المسيحية، هو أن الذي يجعل المؤمن سعيدا سعادة حقيقية، هو فعل ما يريده الله. فالمؤمنون لا يُجبرون على إطاعة الله، بل يطيعونه بكل سرور، ويجدون سعادتهم في ذلك. وعندما يفكرون في ذلك، يدركون أنه لا شيء يجعلهم سعداء مثل خضوعهم لإرادة الله. وهم راضون بأن يخطط الله لهم مستقبلهم، حتى وإن كانت خططه مختلفة تماما عما يريدون. في الواقع هم يفضِّلون خطط الله على خططهم، لأنهم واثقون أن الله يعرف ما هو لصالحهم أكثر مما يعرفون. والحقيقة أنه يفهمهم أكثر مما يفهمون هم أنفسهم! أما غير المؤمنين الذين يعتقدون أن مصيرهم بأيديهم، فيخافون من المستقبل، لأن خطأً واحدًا يمكن أن يؤدي إلى كارثة، بينما المؤمنون لا يخشون شيئًا، إذ يمكنهم تسليم المستقبل لله، ويستمتعون بأن يقودهم. لقد كتب سليمان الحكيم: "توكل على الرب بكل قلبك. وعلى فهمك لا تعتمد. في كل طرقك اعرفه وهو يقوِّم سبلك" (أم٣: ٥، ٦). إن معرفة المؤمنين لحقيقة أن الله هو ضابط كل شيء، يجعلهم سعداء، سواء أثناء اجتيازهم في ضيق، أو بعده عندما يتأمَّلون الأحداث، ويرَوْن كيف اقتادهم الله فيها.

وما هو أكثر من ذلك، أن السعادة المسيحية تدوم، مهما كان نوع الضيق الذي نجتازه. ليس للمؤمنين الحق في أن يقرِّروا نوع المعاناة التي يجتازون فيها كأن يقولوا: "إنهم مُهيؤون لأن يفقدوا ممتلكاتهم وليس صحتهم!" إنهم سعداء مهما كان نوع المعاناة التي تحل بهم. ربما تتوالى عليهم أنواع المعاناة، حتى يبدو وكأن حياتهم تتألف من سلسلة من المتاعب، لكنهم يحتفظون بسعادة حقيقية في أعماقهم. وقد يبدو المشهد أنه لا نهاية لمتاعبهم، لكنهم يحتفظون بسعادتهم في أعماقهم؛ وبهذا يتمجد الله الذي خطط لحياتهم كلها.

الفصل الثاني

سر السعادة

كتب بولس الرسول يقول إنه قد تعلم سر الاكتفاء. إنه يسمِّيه سرًّا؛ لأنه أمر لا يتعلَّمه الكثير من الناس، ولأنه من الصعب على غير المؤمنين أن يفهموا ما الذي يجعل المؤمنين سعداء. وفي هذا الفصل سندرس بعض الأمور عن السعادة المسيحية، والتي يمكن أن تكون محيِّرة.

أولا: إن السعادة المسيحية محيِّرة، لأنها تشمل الاكتفاء في اتجاه وعدم الاكتفاء في اتجاه آخر. فالمؤمنون سعداء دائما؛ لإدراكهم أن الله معهم، ويحزنون إذا لم يشعروا بذلك شعورا حقيقيا. ومما يحزنهم أيضا أن يتذكروا بشاعة خطاياهم؛ لأن الخطية هي التي تحرمهم من التمتع بالشركة مع الله. لكن في السماء وفي السماء فقط، سيصبحون بلا خطية وسيتمتعون بشركة متصلة مع الله، كما أنهم لا يجدون شبعهم في الأشياء التي يفضلها غير المؤمنين. إن إحساسهم بأنهم محبوبون من الله، أهم عندهم من أي شيء يقدمه العالم. لقد شعر آساف (الذي كتب عدة مزامير) بمثل هذا الشعور؛ فكتب: "من لي سواك في السماء، ومعك لا أريد شيئا في الأرض" (مز٧٣: ٢٥). وهذا الشعور بأنهم محبوبون من الله، حفظ المؤمنين سعداء حتى في أشد أوقات الضيق.

كذلك يختبر المؤمنون السلام الذي يهبه الله، وهو سلام "يفوق كل عقل" (في٤: ٧). وبمجرد أن يختبروه، لا يمكنهم أن يسعدوا بدونه؛ لأنهم يدركون أن هذا السلام منبعه قرب الرب يسوع المسيح، رئيس السلام، منهم. فهم يختبرون هذا السلام طالما كانت طاعتهم له في ذروتها. وعلى العكس من ذلك فإن غير المؤمنين يطلبون السلام لكنهم لا يريدون أن يطيعوا الرب يسوع. ولابد أن يروا أن المؤمنين الذين يقابلونهم هم أكثر الناس إحساسا بالسعادة

والرضا والسلام. وإذا سألوا عن السبب لابد أن يجيب المؤمنون: "أن ذلك لأنهم خدام رئيس السلام".

ثانيا: السعادة المسيحية محيّرة لغير المؤمنين، لأنها لا تنشأ من أخذ الكثير، بل من الاكتفاء بالقليل. يظن غير المؤمنين أنه كلما امتلكوا الكثير ليتمتعوا به، كلما كانوا أكثر سعادة، بينما يدرك المؤمنون أن هذه الأمور الأرضية لن تجعلهم سعداء إلا لوقت قصير؛ فالأغنياء ليسوا بالضرورة سعداء، فما يسعد المؤمنين سعادة حقيقية هو رغبتهم في الأشياء التي يختار الله أن يمنحهم إياها فقط؛ فسعادتهم لا تنشأ من حجم أرصدتهم في البنوك، بل من رغبتهم في الاكتفاء بما يختار الله أن يعطيهم. من يكون له الكثير لكنه يرغب في المزيد سيصبح بائسا، والإنسان الذي له القليل من الأشياء ولا يرغب في المزيد سيكون سعيدا. ذلك يشبه شخصا له رجلان قصيرتان، يمشي بأكثر سهولة ويسر عن آخر له رجل طويلة وأخرى قصيرة! هذا الدرس من الأهمية بمكان للمؤمنين لكي يتعلموه في أيامنا هذه، التي فيها يرغب غير المؤمنين في الكثير والكثير من الأشياء المادِّية، وينجحون في الحصول عليها. وعلى المؤمنين أن يُظهِروا للآخرين أن السعادة تتم بالرغبة في القليل، وليس بالحصول على الأكثر.

ثالثا: السعادة المسيحية محيّرة كذلك، لأن الطريق إلى السعادة أحيانا لا يكون بالبعد عن القلق، بل بالبدء في القلق من ناحية شيء آخر. لنفترض أننا متضايقون بسبب مشكلة تؤثر علينا. لو ظننا أن كل ما نحتاج إليه لنسترد السعادة، هو التخلص من المشكلة، فإننا نخدع أنفسنا؛ فالشيء الذي يحرمنا من السعادة في الواقع هو الخطية، فإذا ازداد قلقنا من جهة الخطية، فإن مشكلاتنا الأخرى ستتضاءل. والخطية التي قد يقع فيها المؤمنون بصفة خاصة، هي نسيانهم أن كل ما عندهم مصدره الله، وبالتالي نسيانهم أن يشكروه، أو أنهم يلومون الله بسبب الأمور التي يعانون منها. لو تذكروا أن الله صالح معهم أكثر مما يستحقون، لكان من الأسهل عليهم أن يكونوا سعداء حتى في الأوقات الصعبة. فلو وَجدَتْ إحدى العائلات مثلا أن خططها

للمستقبل لا تتم وفق ما تريد، فإن أفرادها قد يبدأون في المنازعة وتوجيه اللوم لبعضهم البعض. لكن المنازعة خطية، ويجب عليهم أن يوقفوها، ويطلبوا من الله أن يغفر لهم، إذا أرادوا أن يكونوا سعداء في المستقبل.

رابعًا: مما يحيِّر في السعادة المسيحية أيضا هو أن التخلص من المشكلة ليس شرطا لنكون سعداء؛ ففي بعض الأحيان يباركنا الله أثناء الألم، وهذا ما كتبه بولس الرسول: "لأن الجسد يشتهي ضد الروح، والروح ضد الجسد، وهذان يقاوم أحدهما الآخر حتى تفعلون ما لا تريدون" (غل٥: ١٧). هذا الصراع يحدث داخل كل مؤمن بصفة مستمرة. وفي بعض الأحيان تساعدنا المشكلة أن ننتصر على الجسد وأن يزداد اقترابنا من الله أكثر؛ وبهذه الكيفية يتحوَّل الألم إلى بركة.

خامسًا: السعادة المسيحية محيِّرة أيضا، لأنها لا تتحقق بالرغبة في أخذ المزيد، أو بزيادة ما لنا، بل بزيادة إنجازنا. يقول المؤمن: "إن الله وراء ما حدث لي، وبسبب ما أصابني فإني لست سعيدا كما كنت، ولكن لا يوجد مجال للشكوى، بل يجب أن أبحث عن طرق جديدة، أخدم بها الله وأجد فيها السعادة بطاعتي له". سيكون المؤمنون أكثر سعادة بخدمتهم الله بقدر استطاعتهم، وليس بالامتداد إلى خارج نطاق إمكانياتهم، فلا يجب أن يكونوا كالأطفال الذين يحاولون أن يلمسوا السحاب.

سادسًا: مما يجعل السعادة المسيحية محيِّرة لغير المؤمنين، أن ما يجعل المؤمنين سعداء، هو تعلُّمهم قَبول حقيقة أن إرادة الله هي الأفضل، ومتى تعلموا ذلك، فإن عدم تحقيق رغباتهم لا يضايقهم، لكنهم في الواقع سعداء بأن يريدوا ما يريده الله، وأن يحبوا ما يحبه، وأن يكرهوا ما يكرهه. إن لسان حال كل منهم هو: "لقد جعلني الله حكيما حكمة روحية، وجعلني مقدسا، وعلَّمني أن أقبل أن مشيئته هي الأفضل، وحيث أن الله راض بذلك، وبذلك يتمجَّد؛ لذا فأنا سعيد".

ويمكننا أن نجمل هذه الستة أسباب المحيرة بالقول إن ما يجعل المؤمن سعيدا هو أن الله يقدسه، فسعادته تستند على ما يعمله الله. عندما كتب يعقوب: "من أين الحروب والخصومات بينكم؟ أليست من هنا من لذاتكم المحاربة في أعضائكم؟" كان يرينا أن سبب التعاسة بين المؤمنين هو وجود خطية في حياتهم، فإذا ما تخلَّصنا من تلك المشاعر الداخلية الأثيمة، التي تؤدي إلى الشر، فسنكون أكثر سعادة. والخلاصة أن السعادة الحقيقية، لا تنشأ مما نملك، بل تتوقف على نوعيتنا كَبَشَر. هذا هو سر السعادة العظيم.

إن الذين سعادتهم من هذا النوع – سعداء من الداخل لأنهم أنقياء من الداخل – يسرُّون بكل ما يقدمه الله لهم، فهم واثقون أن كل ما لديهم هو هبة من الله: سواء الصحة، أو البيت، أو المأكل، أو الملبس، أو الأصدقاء، أو الأسرة، أو الوظيفة، أو الفرص، أو وسائل التسلية. كل هذه هبات من الله، وعلامة على محبته لهم؛ لذلك فالمؤمنون مسرورون بها جميعا، وسعداء بقبولها. قد يكون ما لديهم أقل مما لدى بعض غير المؤمنين، لكنهم يقدِّرون ما لديهم تقديرا عظيما، لأنهم يدركون أن الأفضل للإنسان أن يمتلك القليل، ويكون ابنًا لله، من أن يملك الكثير ويقع تحت دينونته. فضلا عن ذلك، يعرف المؤمنون أن كل علامة من علامات محبة الله التي يقبلونها منه، هي بمثابة ضمان أو عربون، بأن الله سيفي بوعوده الصالحة في الحياة الآتية؛ فكل ما يعطيه الله لهم يجعلهم سعداء، ويذكِّرهم بالسعادة الفائقة التي سيتمتعون بها.

مرة أخرى نقول إن المؤمنين السعداء من الداخل؛ لأنهم أنقياء من الداخل، يجدون أنهم عندما يعانون ينالون تعزياتهم في التفكير في الرب يسوع المسيح، وهذه أعظم مما يمكن أن يجتنوه من التذمر. إنهم عندما يقرأون العهد الجديد يرَوْن كم تألم الرب يسوع، ويعرفون أن الرب يتألم عندما يتألمون، لأنه اختبر الألم. لقد اختبر الرب يسوع كل أنواع الألم: الجسدي، والمادي، والعاطفي، والروحي؛ فقد كان يسوع فقيرا، لذا يقدر أن يريح المؤمنين الفقراء، ولأنه ظُلم يقدر أن يعزِّي ضحايا الظلم. لقد عُذِّب؛ لذلك يستطيع أن

يعزّي المؤمنين، الذين يطلبون منه قوة في وقت الألم. لقد وعد الرب قائلا: "إذا اجتزت في المياه فأنا معك". وقد يخشى المؤمنون الموت، لكنهم يتشجَّعون عندما يفكِّرون في موت الرب يسوع، خاصة عندما يذكرون أنه قام من الأموات.

هذا هو الطريق الوحيد الذي يمكن للمؤمنين أن ينالوا به القوة عندما يعانون. إنهم يلتفتون إلى المسيح الذي له السلطان أن يغفر خطاياهم، ويقدِّسهم، ويعينهم في جميع تجاربهم. عندما كتب بولس الرسول إلى بعض المؤمنين الذين كانوا يعانون من تجارب شديدة، أوصاهم ألا يتَّكلوا على قدراتهم الذاتية، بل على القوة التي يمنحها المسيح، وكانت صلاته أنهم يكونوا: "متقوِّين بكل قوة بحسب قدرة مجده"، وذلك لكي يكون لهم "كل صبر وطول أناة بفرح" (كو١: ١١).

أخيرًا فإن السعيد من الداخل، لأنه نقي من الداخل، يجد أن السعادة العظمى مصدرها معرفة الله. كان كل شيء محبطًا لكاتب "مراثي إرميا"؛ فمدينة أورشليم قد سقطت في يد العدو، وبدا كأن شعب الله أصبح بدون مستقبل، لكنه كان يعرف أن المصدر الوحيد والحقيقي للسعادة هو الله نفسه؛ لذلك كتب يقول: "نصيبي هو الرب قالت نفسي، من أجل ذلك أرجوه" (مرا ٣: ٢٤). لقد عرفنا أن الله هو الذي أعطى المؤمنين كل شيء؛ وما يعطيه الله يجلب السعادة، تماما كما توصل الأنابيب الماء. لكن أحيانا ينقطع الإمداد ويتحتم الحصول على الماء من النبع مباشرة. وبنفس الطريقة، عندما تنفد الأشياء التي يعطيها الله، يكون علينا أن نتجه إلى مصدر السعادة، الله نفسه، وبمرور الوقت يتزايد إدراك المؤمنين أن مصدر السعادة الحقيقية هو الله نفسه، وفي السماء سيكون هو المصدر الوحيد للسعادة: "ولم أر فيها هيكلا لأن الرب، القادر على كل شيء هو والخروف هيكلها، والمدينة لا تحتاج إلى الشمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها، لأن مجد الله قد أنارها، والخروف سراجها" (رؤ٢١: ٢٢، ٢٣). وحتى على الأرض هنا يمكننا أن نبدأ في اختبار هذه السعادة في الله وحده.

إن الرب يسوع يوجز هذه الأمور التي تعلمناها في هذا الفصل بقوله: "لا يأتي ملكوت الله بمراقبة، ولا يقولون هوذا ههنا أو هوذا هناك. لأن ها ملكوت الله داخلكم" (لو١٧: ٢٠، ٢١). يتطلع المؤمنون لأن يكونوا في السماء، لكنهم يتمتعون بالسماء هنا بشكل ما. إنهم يعرفون ان اختبارهم مذاق السماء في هذه الحياة، يؤكد أنهم سيختبرونه اختبارا كاملا. أما في الوقت الحاضر، فكل ما يختبرونه عن الله، يرضيهم كل الرضى؛ لأن المسيح لا يعجز عن تسديد أي احتياجات لهم.

لكن هذا النوع من السعادة لا يتحقق إلا عندما يكون هناك سلام في داخل الشخص، مثل الأسرة السعيدة التي تنعم بسلام داخل البيت. لكن غير المؤمن ليس في سلام؛ ولذا فلا يمكن أن يكون سعيدا، مثل أسرة تعيسة لأن أفرادها في نزاع دائم.

ويدرك المؤمنون أن وجود هذا السلام، وهذه السعادة في داخلهم، دليل على أنهم سوف يتمتعون بالسلام والسعادة في السماء. ان إدراك هذه الحقيقة مكَّن بعض المؤمنين أن يموتوا بشجاعة عوض أن ينكروا الإيمان، إذ تطلَّعوا إلى الوجود في السماء. وقد كتب بولس الرسول هذه الكلمات: "لذلك لا نفشل بل وإن كان إنساننا الخارج يفنَى، فالداخل يتجدد يوما فيوما. لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثِقَلَ مجد أبديا. ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرَى، بل إلى التي لا تُرَى، لأن التي تُرَى وقتية وأما التي لا تُرَى فأبدية." (٢كو٤: ١٦ – ١٨).

وسوف ندرس سبب يقين المؤمنين من أن الله سيتمم ما وعد به، وذلك في الفصل التالي.

أسئلة دراسية في الفصلين الأول والثاني

١. ما هي أهم الأسباب لعدم القناعة في حياتك؟ كن أمينا مع نفسك!

٢. إن القناعة صفة من صفات الله نفسه، وهي هبة ثمينة يعطيها الله لأولاده. ما هو مفهومك عن طبيعة هذه القناعة؟

٣. يتحدث الفصل الثاني عن القناعة المسيحية كسرٍّ عظيم، وكشيء لا يمكن أن يفهمه الشخص غير المؤمن. إن أردنا أن نكون أمناء لابد أن نعترف أن كثيرين من المؤمنين يجهلون هذا السر، فما السبب؟

٤. ما هي العلاقة الموجودة، أو التي يجب أن تكون، بين القناعة المسيحية وموعد المجد العتيد أن يُعلَن؟

٥. "إن السعادة المسيحية... لا تأتي من الحصول على ما هو أكثر، بل من انحسار رغباتنا." – كيف يمكننا أن نكبح رغباتنا؟

٦. كيف تختلف رغباتنا وتوقعاتنا كمؤمنين، عن رغبات وتوقعات غير المؤمنين من أقربائنا وأصدقائنا وجيراننا؟

٧. ما هي العلاقة بين القناعة والتقوى؟

٨. في ضوء إجاباتك عن الأسئلة السابقة، ما هي التغييرات التي تحتاج أن تحدث في أسلوب حياتك؟

الفصل الثالث

وعود الله

لقد أعطى الله وعودا عظمى لكل من يؤمن بيسوع المسيح. والتفكير في يقينية ما وعد به الله، يسعد المؤمنين.

الله بار ولا يمكنه تجاهل الخطية، لكنه أيضا إله محب؛ لذا أشفق على الخطاة ورغب في خلاصهم من العقاب الذي يستحقونه. ولأنهم لم يقدروا أن يخلِّصوا أنفسهم، قرَّر أن يُعينهم، وأن يكون رحيما وينقذ بعضهم، لذلك أرسل ابنه الرب يسوع المسيح، الذي قَبِل أن يصير إنسانًا، ويعيش حياة الطاعة الكاملة لله أبيه، وقد احتسبت طاعته لشعب الله. لقد تعرَّض الرب يسوع للموت صلبًا، ووَضع على نفسه العقاب الذي يستحقه شعب الله بسبب خطيتهم؛ وعلى ذلك يمكننا أن نقول: إن الله وعد بأن يحسب طاعة المسيح للمؤمنين، ليرفع عنهم جرمهم ويضعه على المسيح، وأن يعطيهم حياة أبدية. إن الروح القدس يعطيهم حياة جديدة، ويضع فيهم أن يؤمنوا بالرب يسوع المسيح، ويعطيهم يقين الخلاص، ويقويهم لكي يتغلبوا على سلطان الخطية.

إن وعود الله هي نتيجة لنعمته، وهذا يعني أنها أعطيت لمن لا يستحقونها، وكل ما يعد به الله يدوم للأبد. إن موت المسيح قد هيَّأ الخلاص المؤكد والدائم لشعبه، فلن يدعهم يهلكون، ولقد أُعطِيت الوعود للمؤمنين كأفراد، وكل ما يَعِد به الله يُعطَى لهم كل على حدة.

إن الوعود التي أعطاها الله هي أعظم مشجع للمؤمنين؛ فقد وعد أن يخلِّص كل شعبه؛ الأمر الذي يعطيهم إحساسا بالأمان، ويجعلهم في قمة السعادة. كما وعد بأن الشيطان لن يغلبهم، وهذا أيضا يعطيهم إحساسا بالأمان، حتى عندما يواجهون المتاعب والإحباط. وعندما يكون المستقبل غامضا، فإنهم سعداء، يثقون أن وعود الله لا تُحنَث. كان لداود ثقة تامة في

أمانة الله، وعرف أن الله لابد وأن يحقق ما قاله: "أليس هكذا بيتي عند الله، لأنه وضع لي عهدا أبديا مُتقنا في كل شيء، ومحفوظا؟ أفلا يُثبِت كل خلاصي وكل مسرتي؟" (٢صم٢٣: ٥). ومؤمنوا العصر الحاضر لديهم من الأسباب، التي تؤكد لهم بأن الله سيفي بوعده، أكثر مما كان لدى داود؛ فإنهم عندما يتطلعون إلى عمل الرب يسوع، يجدون فيه تحقيق كل مواعيد الله. في العهد القديم كان لشعب إسرائيل أن يفرحوا؛ لأن الله قد وعد بأن يكون طيّبا للأمة، أما المؤمنون اليوم فيمكنهم أن يفرحوا بالأمور الأعظم التي صنعها الله من أجلهم كأفراد (عبرانيين ص٨).

فإلى جانب الوعد بالخلاص، قدم الله أيضا وعودا كثيرة رائعة. ويجب أن تُفهم كل هذه الوعود في ضوء الوعود العظمى التي وعد بها الله عن الخلاص. فلا يجب أن نعتقد أن التفسيرات الحرفية هي كل ما تتضمنه هذه الوعود؛ فالمزمور الحادي والتسعون مثلا، يشتمل على مواعيد بأن متقي الله لن يعاني من مرض أو حوادث أو ضرر. وقد يتساءل المؤمنون الذين يعانون من الأمراض إن كان هذا المزمور يشملهم في سياقه. وقد يكون لبني إسرائيل العذر في توقع بركات مادية وخارجية ثمنا للطاعة. ولا شك أن البركات الموعود بها، واللعنات المهدِّدة في ناموس موسى، توحي بأن الأمر كان كذلك، أما الوعد المذكور في عددي٩، ١٠ من مزمور ٩١: "لأنك قلت أنت يا رب ملجأي، جعلت العلي مسكنك، لا يلاقيك شر ولا تدنو ضربة من خيمتك" – فلا يجب أن يؤخذ على أنه يعني أن المؤمنين لن يتألموا، بل بالأحرى فإن هذا النص يعلِّمهم أن تكون لهم ثقة بأن الله يعتني بهم باستمرار ويحفظهم من الشر. قد يستخدم الشدة ليؤدِّبهم كما يؤدب الأب أولاده، مما يبرهن على أنهم أولاد الله. وهو من حقه أن يعطيهم كل ما يراه مناسبا لهم، ويأخذ كل ما يراه غير مناسب لهم، وفي كل الأحوال يعمل الكل لخيرهم. فإذا حدث شيء يبدو وكأنه يؤذيهم، يمكنهم أن يتأكدوا أن كل ما يحدث هو جزء من خطط الله لخيرهم؛ وعلى ذلك فلن يصيبهم ضرر حقيقي، ولا ضرر روحي، ولا ضرر أبدي.

ومن بين وعود العهد القديم، التي يمكن للمؤمنين أن يطبقوها على أنفسهم، الوعد المذكور في كل من إش٤٣: ٢ ويش١: ٥؛ فكاتب الرسالة إلى العبرانيين يقتبس الوعد من سفر يشوع في صورة قوية جدا، كما لو كان الله يقول: "كلا أنا لن أتركك، لن أتركك. لن أتركك" (عب١٣: ٥).

وهكذا فإن الله أعطى هذه الوعود، كما أعطى مثلها الكثير، وكل الوعود تشير إلى السماء، وتعلّمنا أن بعض السرور الذي سنتمتع به في السماء يمكن التمتع به هنا والآن، تماما مثل النوتية الذين في بحر عاصف، يعزّيهم التفكير في الشاطئ.

الفصل الرابع

التحق بمدرسة السعادة

في هذا الفصل، نحن متوجهون إلى المدرسة؛ لكن ليس لدراسة الرياضيات أو العلوم أو الجغرافيا، بل مدرسة يؤدي فيها المسيح دور المعلم، وسيعلمنا كيف نكون سعداء، وسنتعلم عشرة دروس في هذه المدرسة. والمؤمنون الذين يستوعبون هذه الدروس مجتمعة، سيجدون أنه بإمكانهم أن يكونوا سعداء جدا مهما حدث لهم. ويجب أن نتذكر أن المسيح ليس معلِّما فقط، لكن حياته هي النموذج الكامل للسعادة في كل الظروف.

درس (١) – إنكر ذاتك!

إنه أمر مكلف أن تكون مؤمنا، والمؤمنون الذين يدَّعون غير ذلك، ليسوا صادقين. لقد كان يسوع واضحا للغاية من هذه الناحية، فقال: "إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني. فإن من أراد أن يخلِّص نفسه يهلكها، ومن يهلك نفسه من أجلي فهذا يخلِّصها" (لو٩: ٢٣، ٢٤). فالمسيح نفسه يعلِّم المؤمنين كيف ينكرون أنفسهم، إنه يعلِّمهم أنهم غير مستحقين للطف الله، بل غضب الله على خطيتهم، وأنهم لا يقدرون أن يفعلوا شيئا بدون معونة الله لهم. وعندما تُؤخذ منهم الأشياء التي يتمتعون بها، يدركون أنه ليس من حقِّهم شيئا من الله، لأنهم لا يعملون من أجله إلا القليل. ويعلِّمهم المسيح أيضا أنهم خطاة جدا، للدرجة التي تجعلهم مُعرضين لإفساد الأشياء الجيِّدة التي يمنحهم إياها، وأنه بالرغم من أنه قد يباركهم، ويمكِّنهم من استخدام هذه الأشياء استخداما حسنا، لكنه إذا تركهم وشأنهم، فإنهم واثقون أنهم سيسيؤن استخدامها. كذلك يعلِّمهم أنهم إذا ماتوا، فإن ما عملوه لن يضيع أو ينتهي؛ لأن الله قادر أن يقيم آخر يكمل المسيرة. إن فهم هذه الأمور هو المقصود بإنكار أنفسنا؛ لذلك يجب أن نبذل كل الجهد لندرك مدى ضآلتنا؛ عندئذ فإن كل مشكلة ستبدو ضئيلة، وكل بركة ستبدو عظيمة.

درس (٢) – إنكار المسيح لذاته

ما من أحد أنكر ذاته مثلما أنكر المسيح. لقد كتب إشعياء عنه قائلا: "ظُلِم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه. كشاة تساق إلى الذبح، وكنعجة صامتة أمام جازّيها فلم يفتح فاه" (إش٥٣: ٧). لقد تنبأ إشعياء عن المسيح، وعن كيف أنه سيخضع للموت كذبيحة عن خطايا شعبه، وكتب بولس الرسول أيضا عن المسيح أنه: "أخلى نفسه آخذًا صورة عبد، صائرًا في شبه الناس، وإذ وُجِد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب" (في٢: ٧، ٨)، وبرغم كل هذا كان أعظم من عاش قانعًا راضيًا. وكلما زاد اتباع المؤمنين لمثاله في إنكار الذات، كلما كانوا أكثر سعادة. لقد سُرَّ المسيح بأن يعمل مشيئة أبيه، والمؤمنون يحتاجون أن يتعلموا أنه: بينما الأنانيُّون يكونون سعداء فقط عندما يفعل الله ما يريدون، فإن من ينكرون ذواتهم يكونون سعداء بكل ما يعمله الله.

درس (٣) – بدون الله لا شبع

"باطل الأباطيل قال الجامعة، باطل الأباطيل الكل باطل. ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس؟" (جا١: ٢، ٣). إن من لا تسعدهم الأشياء التي يقدمها هذا العالم، فإن عدم سعادتهم، بحسب رأيهم، ليس لأنهم لم ينالوا ما يكفيهم، بل لأن ما يقدمه هذا العالم لا يمكنه أن يجلب السعادة. لقد خُلق الجنس البشري ليعرف الله ويتمتع به. كتب أوغسطينوس العالم اللاهوتي العظيم ما يلي: "يا الله لقد خلقتنا لنفسك، وقلوبنا لن تجد الراحة حتى تستريح فيك". إن التعساء الذين يظنون أنه كلما حصلوا على المزيد من الأشياء سوف يشبعون، يشبهون أناسًا جائعين، يظنون أن ملء أفواهم بالهواء سوف يوقف ضَوْرَهم. "لماذا تزنون فضة لغير خبز، وتعبكم لغير شبع؟" (إش٥٥: ٢). لا شيء يستحق امتلاكه بعيدا عن الله.

درس (٤) – المسيح فيه الشبع

لقد علَّم يسوع المسيح أنه هو نفسه الذي يمنح الناس سعادة حقيقية. لقد قال: "أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد" (يو٦: ٥١). وقال أيضا: "إن عطش أحد فليقبل إليَّ ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي" (يو٧: ٣٧، ٣٨). والخبز والماء هما أهم الحاجات الأساسية لأجسادنا. كان يسوع يعلِّم أنه مشبع الاحتياجات الأساسية لنفوسنا، تماما كما تنبأ إشعياء عنه: "اسمعوا لي استماعا وكلوا الطيب ولتتلذذ بالدسم أنفسكم (إش٥٥: ٢). ووعد يسوع بأن شعبه سيكون: "لهم حياة ويكون لهم أفضل"، وأن "فرحهم سيكون كاملاً (يو١٠: ١٠، ١٦: ٢٤).

درس (٥) – كن سائحا ومحاربا

المؤمنون سياح – مجرد عابرين في هذا العالم، يخيِّمون في خيمة أجسادهم؛ فهم يستعدون لحياة أبدية في السماء، عندما يعطيهم الله أجساد القيامة الكاملة؛ لذلك فمن الحماقة أن يكونوا تعساء بسبب أحوال أجسادهم الحالية. إننا نقرأ عنهم في عب١١ إنهم: "أقرُّوا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض... يبتغون وطنا أفضل أي سماويا، لذلك لا يستحي بهم الله أن يُدعى إلههم لأنه أعد لهم مدينة" (عب١١: ١٣، ١٦)، ويجب أن يتعلم المؤمنون أن يفكروا بهذا الأسلوب. إن المسافرين وهم بعيدون عن وطنهم، يقبلون بعض المشقات، مثل الطعام غير المناسب أو ظروف السفر الصعبة، كذلك للمؤمنين وطن أبدي، ولذا فمتاعب إقامتهم على الأرض لا تستحق إنزعاجهم.

والمؤمنون محاربون أيضا، فقد كتب بولس إلى تيموثاوس قائلا: "فاشترك أنت في احتمال المشقات كجندي صالح ليسوع المسيح" (٢تي٢: ٣). إن الجندي وهو بعيد عن بيته، في تدريب أو في خدمة فِعلية، لا يتوقع

الاستمتاع بما يتوفر من راحة في بيته. كذلك المؤمنون، هم جنود يحاربون الشيطان، عدو نفوسهم؛ لذا يجب أن يكونوا مستعدين للاستبسال في الجهاد، وعليهم أن يتذكروا أن الحياة المسيحية تشكل معركة طويلة تُحتم عليهم تحمل المشقات. لكن بينما لا يعرف الجندي العادي من سيكسب الحرب في النهاية، فإن المؤمنين يمكنهم التأكد من أن يسوع المسيح ضامن لنصرتهم النهائية.

درس (٦) – استمتع بالأوقات الطيبة

إن كل ما في العالم أعطاه الله للبشر؛ لكي يتمتعوا به، وبإمكانهم أن يكونوا سعداء إذا عرفوا أن كل ما عندهم هو من الله، وشكروه على ذلك. وعندما يتطلع المؤمنون إلى كل ما خلقه الله فإنهم يرونه حسن، ويرون أن الله طيب؛ ولذلك فما صنعه الله يجعلهم سعداء. لكن يجب عليهم أن يدركوا أن ممتلكاتهم ليست أهم ما أعطاهم الله، وأن يكونوا على استعداد للاستغناء عنها، إذا كان هذا ما يريده الله. فقد يدعوهم الله لأن يخدموه في أوقات صعبة، أو قد يطلب منهم أيضا أن يخدموه في ظروف طيبة، عندئذ فهو يقصد أن يتمتعوا بالأشياء الطيبة التي يعطيهم إياها. إن الله يختار لهم الأفضل، وعليهم أن يتعلموا أن يكونوا سعداء بذلك. إن الموظف الذي يرفض القيام بعمل آخر غير عمله، بناء على طلب المدير، فإن ذلك لا يرضي الإدارة!

درس (٧) – إعرف نفسك

على كل مؤمن أن يفحص نفسه، وأن يكتشف رغباته العميقة. هذا سوف يعلِّمه أنه ليست ظروف حياته هي السبب في عدم سعادته، بل حالة قلبه؛ فالسبب الحقيقي في عدم السعادة غالبا ما يكون الخطية. والمؤمن الذي يعرف نفسه، يمكنه أن يكبح الخطية في بدايتها، ويوفر على نفسه الكثير من الأسى، أما المؤمنون الذين لا يعرفون أنفسهم، فإنهم عرضة للإصابة بالخوف الشديد عندما تظهر المشاكل، فيقولون: "يبدو أن الله قد نسينا!" لكن

إذا عرفوا أنهم في حاجة إلى أن يتَّضعوا، لفهموا أن الله يرسل المشاكل لامتحانهم أو لتأديبهم. إن الدواء ذا الأثار الجانبية غير المرغوبة، قد يكون سببا في إنقاذ حياتك؛ كما إن اختبارا يجلب بعض الضيق قد يحفظك من الخطية.

وعندما يزداد المؤمن في معرفته لنفسه، تتحسن صلواته؛ فالمؤمنون غير الناضجين الذين لا يفهمون أعماق قلوبهم، يصلُّون طالبين أمورًا غير نافعة، ثم يُحبَطون عندما لا ينالون كل ما يريدونه.

درس (٨) – تحذَّر من الغنَى!

كثيرا ما يحسد المؤمنون الأغنياءَ؛ ولا يرَون المشاكل التي يجلبها الغِنَى: "لأن محبة المال أصل لكل الشرور، الذي إذ ابتغاه قوم ضلُّوا عن الإيمان، وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة" (١تي٦: ١٠). فالحذاء الجديد قد يبدو جذابا، لكنه قد يؤلم قدم من يلبسه، والمدينة قد تبدو جميلة لكن سكانها فقط هم الذين يعرفون مدى قذارة الأحياء الفقيرة، والناس قد يكونون أثرياء ومترفهين، لكنهم حزانى في أعماقهم، والأغنياء أو المشاهير، غالبًا ما يواجهون المشاكل والأحزان، فقد يجلب الرخاء المتاعب وقد يدخل أصحابه في تجربة. قال يسوع إنه من العسير جدا أن يدخل الأغنياء ملكوت السموات، وأكثر من ذلك،فإن الأغنياء والمشاهير، سوف يعطون يوما حسابًا أمام الله عن كيفية استخدام ثرواتهم وشهرتهم.

درس (٩) – احذر من تحقيق رغباتك الشخصية!

نقرأ في أماكن متعددة من الكتاب المقدس، عن أناس حصلوا على ما أرادوا. وكثيرا ما يرغب الناس رغبات أنانية، لن يفيدهم تحقيقها؛ لذلك عندما يعطيهم الله ما يريدون يكون بمثابة عقابٍ شديد: "فلم يسمع شعبي لصوتي، وإسرائيل لم يرض بي، فسلَّمتهم إلى قساوة قلوبهم ليسلكوا في مؤامرات أنفسهم" (مز٨١: ١١، ١٢). قال برنارد (١٠٩٠ – ١١٥٣)، الذي كان

رئيسا لدير كليرفو: "يا رب لا تسمح أن يكون لي مثل هذه التعاسة! فإن أعطيتني كل ما أريد وكل ما يشتهيه قلبي، فإن هذا يمثل أشد عقوبة في العالم". إن إدراكنا أن رغباتنا الطبيعية قد تؤدي بنا إلى الضلال، يعتبر أكثر الدروس صعوبة في مدرسة المسيح، لكنه في نفس الوقت أكثرها أهمية.

درس (١٠) – الله هو المسيطر

إن الله يسيطر على كل الكون بجملته، وذلك يعني أن أصغر التفاصيل التي تحدث تكون تحت سيطرته؛ لذلك فكل ما يحدث للمؤمنين إنما يحدث لأن تلك هي إرادة الله لهم، ولأن الله يرى أن ذلك سيكون خيرا لهم. وقد شجع تلاميذه بتذكيرهم بهذا بالقول: "أليست خمسة عصافير تباع بفلسين وواحد منها ليس منسيًّا أمام الله، بل شعور رؤوسكم أيضا جميعها محصاة، فلا تخافوا، أنتم أفضل من عصافير كثيرة" (لو١٢: ٦، ٧).

ينبغي أن يصلي المؤمنون أن يزيد الله إيمانهم؛ فيقدِّروا اهتمامه بتدبير كل شيء يحدث لهم – كل التقدير – وعليهم أن يتذكروا أنه ليس من السهل أن يفهموا كل ما يعمله الله لهم، لأن كل ما يعرفونه أن لله قصدا يريد أن يتممه في حياتهم – على مدى عشرين عاما – يتوقف على شيء يحدث هذا الأسبوع، فإن قاوموا إرادة الله لهذا الأسبوع فهم إنما يقاومون إرادته في كل الأمور التي تترتب على هذا الأسبوع.

إن الله يعمل بطرق متنوعة، ولكي يسعد المؤمنون بما يعمله الله، عليهم أن يفهموا شيئا عن الأسلوب الذي يعمل به الله. وبصفة خاصة، هناك أمران يمكن أن يتعلموهما في أسلوب الله في العمل:

أولا – من الطبيعي أن يتألم شعب الله. يظن غير المؤمنين، أنه إن كان الله موجودًا حقا، وهؤلاء الناس ينتمون إليه فعلا، فلماذا يتألمون؟ لكن العكس هو الصحيح؛ فإن حقيقة أنهم يتألمون، تبرهن على أنهم ينتمون للمسيح، وهذا ما كتبه بطرس: "أيها الأحباء لا تستغربوا البلوى المحرقة التي بينكم

حادثة لأجل امتحانكم كأنه أصابكم أمر غريب، بل كما اشتركتم في آلام المسيح افرحوا لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضا مبتهجين" (١بط٤: ١٢، ١٣).

ثانيا – إن الله يستطيع أن يخرج من الشر العظيم خيرا جزيلا. كثيرا ما يُدخل الله شعبه في تجارب شديدة قبل أن يُحسن إليهم إحسانا عظيما؛ فقد كان يوسف سجينًا قبل أن يصبح حاكم مصر، وكان داود طريدا قبل أن يصبح ملكا على إسرائيل. ويسوع المسيح نفسه تألم ومات قبل أن يقام من الأموات ويتمجد. قال لوثر: "إنه أسلوب الله أن يضع لكي يرفع، وأن يميت لكي يحيي، وأن يقهر لكي يُمَجِّد."

الفصل الخامس

المكافأة الإلهية

سندرس في هذا الفصل الأسباب التي تجعل المؤمن السعيد شخصا مباركًا.

أولا: إن المؤمنين السعداء يعبدون الله كما ينبغي أن يُعبد. فالعبادة الحقيقية ليست مجرد حضور الاجتماعات وترديد صلواتنا. بالعكس، فمن الممكن أن نمارس لونًا من العبادة ولكن بقلب غير قانع بحيث لا نكون متعبدين لله على الإطلاق. إن الله يطلب أن يعبده المؤمنون بكل ما عندهم، وبجملتهم؛ عندئذ، وعندئذ فقط، يعملون مرضاته ويعبدونه بحق. إن العبادة هي أن نعمل ما يريده الله، كما أن العبادة أيضا هي أن نرضَى بما يقدمه الله لنا؛ فالعبادة والسعادة يسيران جنبا إلى جنب.

ثانيا: إن المؤمنين السعداء هم أولئك الذين يستخدمون هبات الله الروحية، التي منحها لهم، أفضل استخدام. لقد أعطاهم الله، الإيمان والتواضع والمحبة والصبر والحكمة والرجاء، ويريد أن يرى هذه كلها تنمو في شعبه؛ لأن حياة المؤمنين السعداء، تؤثر تأثيرا فعالا على غير المؤمنين. على سبيل المثال، فإن الذين يعانون دون تذمر، هم أناس غير عاديين والمؤمنون الذين يتصرفون هكذا يقدمون شهادة طيبّة تمجد الله.

ثالثا: مما سبق يمكن أن نقول إن المؤمنين السعداء يمجدون الله. إن الطبيعة تمجد الله؛ لأنه خلقها، والمؤمنون الذين يحتفظون بسعادتهم بالرغم من تجاربهم، يمجدون الله؛ لأنه مكَّنهم من ذلك. عندما يرى غير المؤمنين، أن المؤمنين سعداء في أوقات الضيق، يقتنعون بأن الله هو العامل فيهم.

رابعا: إن الله يُحسن إلى المؤمنين السعداء أعظم إحسان، فإذا أرادوا أن يحسن الله إليهم؛ عليهم أن يظلوا هادئين سعداء، ولا يكونوا كالأطفال المدلَّلين الذين يصرخون حتى ينالوا ما أرادوا. إن الآباء الحكماء، يتركون الطفل يصرخ دون

أن يُلَبّوا رغبته إلى أن يهدأ، والمؤمنون الذين يُصلُّون طالبين شيئا ما، ثم يغضبون إذا لم يحصلوا عليه في الحال، كثيرا ما يجدون أن الله يتأنَّى حتى يهدأوا ويكونوا خاضعين له، قبل أن يعطيهم ما يحتاجون إليه. إن السجين المكبَّل بالقيود، إذا هاج وماج لن يحصل على شيء إلا الكدمات؛ فعليه أن يهدأ لكي يدع آخر أن يطلق سراحه.

خامسا: إن المؤمنين السعداء هم أكثر المؤمنين نفعًا. إن الناس المُقَلْقَلين غير المستقرين، لا يصلحون لخدمة الله. ما لم يُهَدِّئ الروح القدس نفوسهم، لن يكونوا مُعدِّين للخدمة.

إن جميع المؤمنين مدعوون لأن يعملوا في خدمة الله، وليس القادة فحسب أو أولئك المدربون تدريبًا معينًا؛ فلا يجب أن يظنوا أنهم مجرد أناس عاديين، لذلك لا مجال لهم في خدمة الله، أو أن الخدمات غير الواضحة للناس لا تعتبر خدمة حقيقية لله. إن الشيء الذي يؤهلهم لخدمة الله، هو الرضَى الروحي الداخلي.

سادسا: إن المؤمنين السعداء مهيأون أكثر من غيرهم لمقاومة التجربة، فالذين يتذمرون من السهل أن يضلُّوا. والشيطان يستهويه أن يرى المؤمنين قلقين، وعندما يواجهون أي معاناة يسعى جاهدًا لإقناعهم بأن هذه المعاناة لا يستحقونها، وبالتالي يعتقدون أن هذا ما كان يجب أن يحدث لهم. وقد يُجرِّب الشيطان المؤمنين الفقراء ليسرقوا، والمظلومين لينتقموا لأنفسهم، أما السعداء بما يسمح به الله، فيصمدون ضد أمثال هذه التجارب.

سابعا: إن المؤمنين السعداء هم أولئك الذين يتمتعون بالحياة تمتعا تاما، هنا والآن. أحيانا يكون الناس الذين لا يملكون إلا القليل، أسعد حالا من الذين لهم الكثير؛ لأنهم تعلَّموا كيف يكتفون بما عندهم، مثلهم مثل الأمة القانعة بما تمتلك من الأرض، فتكون أسعد حالا من أمة أخرى لا تكُف عن الحروب لتزداد تخومها اتساعا.

ثامنا: إن المؤمنين السعداء هم الذين يتطلعون إلى المجازاة التي وعد بها الله. إن الله يجازي كل واحد حسب أعماله، فهو سيكافئ المؤمنين على أعمالهم الصالحة، بل حتى على نواياهم الطيّبة، التي لم يستطيعوا أن ينفذوها، وسيجازي أيضا الأشرار على أعمالهم الشريرة، بما في ذلك المؤامرات الشريرة التي دبروها، حتى وإن كانوا قد عجزوا عن تنفيذها. ولذلك فإن المؤمنين الذين يتألمون من أجل المسيح، دون أن يتمرَّروا من التجربة، لن يفقدوا المجازاة.

أسئلة دراسية في الفصول الثالث والرابع والخامس

١. ما تأثير ما قرأت وتأملت في هذه الفصول على حياتك واتجاهاتك؟

٢. إن الفصل الثالث يوصي بأن مواعيد الله لابد وأن تجعل المؤمنين سعداء أو قانعين. هل مرَّت بك أوقات شعرت فيها بالضيق؛ لأنه بدا لك أن الله لم يف ببعض مواعيده؟ تأمل مز ٩١، ما هو موقفنا من مواعيد كهذه المواعيد؟ وكيف يتحتم علينا أن نتكيَّف مع المواقف التي يبدو فيها الله وكأنه لا يعاملنا حسب مواعيد كلمته؟

٣. في الفصل الرابع نجد اقتراحا لأسلوب به نقدر أن نحمي أنفسنا من روح التذمر، ذلك بأن يكون تقديرنا لأنفسنا تقديرا صحيحا، فلا نبالغ في تقديرنا لأنفسنا أو لما نستحقه. ما مدى أهمية تقديرنا لذواتنا من حيث السعادة المسيحية؟

٤. كيف يكون إدراكنا العملي لسيادة الله، عنصرا أساسيا للقناعة المسيحية؟

٥. في إنجيل يوحنا ٤: ١٣، ١٤ يعلن يسوع عن قدرته أن يروي العطاش؛ فالذي له المسيح يجب أن يكون مكتفيا به. ماذا يعني هذا من الناحية العملية؟

٦. نستخلص من الفصل الرابع أن المؤمنين في حاجة لأن يتعلَّموا كيف يكونون قانعين، فإذا افترضنا أن الكنيسة هي المدرسة التي فيها نتعلم عن المسيح، فكيف يمكن أن نساعد بعضنا بعضا في دروسنا هذه؟

الفصل السادس

سلبيات التذمر

في الفصول الخمسة الأولى من هذا الكتاب، تأملنا مليًّا في موضوع السعادة المسيحية من زوايا مختلفة، حتى نستطيع أن نعرف ماهيتها وسبب أهميتها. وفي النصف الثاني من هذا الكتاب سوف نتعلَّم كيفية ممارسة الحياة المسيحية السعيدة. إن المرارة والتذمر، التي ترى الجانب الأسوأ في كل شيء، إنما هي ضد السعادة. وسندرس في هذا الفصل مساوئ التذمر، وسنكتشف أنه خطية إضافة إلى أنه ضار، وفي الفصل السابع سندرس بعض المواقف التي فيها يكون التذمر خطيرا، وفي الفصل الثامن سنرى بعض الأعذار أو المبررات التي نتخذها مبرِّرا للتذمر. حينئذ سنتأهل لأن نعرف كيف نجد السعادة، وكيف تثبت سعادتنا.

١- التذمر أمر سيِّيء، لأنه بمجرد أن يبدأ فإنه يتنامى إلى ما هو أسوأ. إن روح التذمر تشبه جرحًا رديئًا امتلأ بالصديد، فالجزء المصاب لا يمكن علاجه، بل يجب التخلُّص منه حتى لا ينتشر الداء في كل الجسد. كذلك المَيْلُ للتذمر، إذا لم يُكبَح، فإنه ينتشر في كل حياتنا ويفسد كل شيء.

٢- تكمن خطورة التذمر في أنه خطية؛ ففي رسالة يهوذا: ١٤ – ١٦، يُوضَع المتذمرون على رأس قائمة الأشرار الذين سيدينهم الله. التذمر خطية والله سيدين المتذمرين، أليس هذا أمرًا خطيرًا؟

٣- إن التذمر خطية؛ لأنه يتضمن تمرُّدًا على الله. عندما كان الإسرائيليون في الصحراء، تذمروا كثيرا. فمع أن الله أنقذهم من العبودية في مصر، لكنهم لم يكونوا ممنونين سعداء، واستمروا هكذا لفترة طويلة. وفي كل مرة تذمروا، كان الله يعتبر هذا التذمر مُوجَّهًا ضده هو نفسه (عد١٤: ٢٦ – ٢٩). وفي الأصحاح السادس عشر من سفر العدد، تذمر الشعب على موسى وهرون،

لكن الله اعتبر ذلك تذمرًا عليه هو، وعاقب المتمردين عقابا شديدا. فالتذمر إذًا خطير، ويجب علاجه قبل أن ينتشر روح التذمر إلى الآخرين.

٤- لكن التذمر خطير بصفة خاصة عندما يصدر من شعب الله؛ لأن ذلك يناقض كل ما حدث عندما غيَّر الله حياتهم. لقد جعلهم الله يدركون خطيتهم، ويعترفون بجرمهم، فهل يمكن أن الأشياء الأقل أهمية تفقدهم سعادتهم؟ لقد بيَّن لهم محبة المسيح العجيبة، واستعداده لأن يترك أباه وأمجاد السماء بكل سرور، كما أراهم احتماله لقبول محدودية الجسد البشري واتضاعه وخضوعه، وحياته البشرية الكاملة، وموته بلا خطية. فهل يُمكنهم حقا أن ينسوا كل هذه، ويشتكوا من أن الله لم يحسن إليهم؟ لقد حرَّرهم من الرغبة في السعادة بالحصول على الأشياء المادية، فهل سيتذمرون إذا لم يحصلوا عليها؟ إن المسيح الآن هو سيدهم وملكهم، فهل هم في طريقهم إلى رفض قيادته بالتذمر عليه؟ لقد أتى الله بهم ليخضعوا لإرادته، فإذا تذمروا فإنما يشير ذلك إلى أنهم لم يخضعوا له خضوعا حقيقيا، بل ربما يدل هذا على أنهم ليسوا مؤمنين على الإطلاق. إذا تذكَّر المؤمنون ما فعله الله من أجلهم، سواء محبته لهم، أو غفرانه لخطاياهم، وهبة الحياة الجديدة، وتذكَّروا أنه جدَّدهم بصفة خاصة؛ حتى يمكنهم أن يعيشوا في ضوء كل هذه البركات إلى يوم رحيلهم من العالم؛ فإنهم لن يتذمروا، بل سيشتاقون إلى الخضوع ليسوع المسيح كربٍّ وملكٍ ومخلصٍ لهم.

٥- كما أن التذمر يشكل موقفًا لا يرقى إلى المستوى الذي وضعه الله للمؤمنين. إن الله أبو المؤمنين، فتذمرهم يعني أنهم لا يثقون في رغبته في العناية بهم، أو أنه غير قادر على ذلك. كما أن المسيح عريسهم، لذلك فتذمرهم يعني ضمنا أنهم يشكُّون في محبته. والروح القدس هو معينهم، وتذمرهم يعني أنهم لا يؤمنون بقدرته أو برغبته في معونتهم.

دعنا نتأمل بمزيد من التفاصيل عن المستويات التي وضع الله المؤمنين فيها. لقد رفعهم إلى مكانة كريمة جدا وجعلهم سادة السماء والأرض، وقرَّبهم

إلى نفسه أكثر من الملائكة، وجعلهم متَّحدين مع المسيح. لقد أصبح المؤمنون في مقام متميز جدا، وكل هذا لكي تُظهِر حياتهم قوة الله، فمن حق الله إذن ألا يتوقع تذمرا من أولئك الذين أكرمهم هذا الإكرام العظيم.

إن الله ليس مخلصهم فحسب، بل هو أيضا أبوهم، والآباء يحبُّون أن يروا نقاط القوة فيهم وهي تظهر في أولادهم؛ كذلك يحب الله أن يرى روحه القدوس فعالاً في أولاده، ويريد بصفة خاصة أن يراهم مشابهين ابنه يسوع المسيح، الذي تألم آلاما شديدة ولم يتذمر قط، بل صلَّى قائلا: "ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت". فمن حق الله أن يتوقع عدم تذمر أولاده.

إذا ادَّعى المؤمنون أن الله بالنسبة لهم يعني أكثر بكثير من كل ما في هذا العالم، فعليهم أن يبرهنوا على ذلك بأسلوب حياتهم. خير لك ألا تدَّعي أنك مؤمن من أن تدَّعي ذلك ثم تسلك سلوكا مناقضا لادِّعائك. من حق الله أن يتوقع من الذين يدَّعون أنهم مؤمنون، أن يحافظوا على المستويات المسيحية التي رفعهم إليها.

لقد أعطى الله المؤمنين إيمانا، به يتأكدون أن من حقهم أن ينالوا كل ما وعد به الله. يقول الكتاب المقدس: "إن المؤمنين يجب أن يحيوا بالإيمان"، وليس معنى هذا توقُّع حياة بدون مصاعب، وإلا فلا تكون هناك حاجة إلى الإيمان! لكن معنى الحياة بالإيمان هو أن يقبل المؤمنون إرادة الله بفرح، لأنهم واثقون أنه قد وعدهم بكل ما هو لخيرهم. ولله الحق أن يتوقع عدم تذمر أولئك الذين تعلَّموا أن يثقوا في مواعيده.

وبكلمات أخر يتوقع الله أن يكون المؤمنون صابرين في أوقات التجارب، فرحين في أوقات الضيق. لقد وصل الكثيرون بنعمته إلى هذا المستوى العالي، ويمكننا أن نقرأ عن بعضهم في عب١١. أناس عاديون اتكلوا على الله ليسندهم، عندما كانت تشتد بهم المصاعب. وإن الله يتوقع ذلك، وقد قام به آخرون، لذلك نحن قادرون.

٦- إن التذمر يجعل صلواتنا بلا معنى، فلا يمكننا القول: "لتكن مشيئتك" ونتوقع أن تتم مشيئتنا نحن! ولا يمكن القول: "خبزنا كفافنا أعطنا اليوم"، ثم نتوقع غدًا يتميز بالترف. إن الصلاة ذاتها تتضمن أننا نعترف بأن كل ما عندنا هو من الله، فإذا بدأنا نتذمر على ما يعطيه لنا الله، فبالتالي نكون قد توقفنا عن الصلاة دون أن ندري.

٧- إن التذمر يجلب التعاسة، إنه مضيعة للوقت؛ إذ يشغل كل تفكيرنا، حتى نتوقف عن التفكير في الله وفي كلمته. إنه يجعلنا غير نافعين لخدمة الله. إن الشخص السعيد، يمكنه أن يريح الآخرين، في وقت حاجتهم، أما المتذمر، فليس لديه ما يعطيه. والتذمر هو الخطوة الأولى في الإبتعاد عن الله، وما فعله يونان كان محاولة لإحباط مشيئة الله، بدلا من الخضوع لها. وأسوأ الكل هو أن التذمر يجعلنا ناكرين الفضل. والكتاب المقدس يعتبر إنكار الفضل خطية. والمؤمنون المتذمرون غير شاكرين الله على عطاياه الكثيرة التي عندهم، ويدَّعون أنهم يطلبون عطايا أعظم لكي يمجدوا الله أكثر، لكنهم هم في الواقع غير شاكرين على ما عندهم. والمؤمنون يمكن أن ينكروا فضل الله عليهم، سواء على هباته الروحية أو بركاته الزمنية. لكن الله ينتظر أن يكون المؤمنون شاكرين وأن يحمدوه على كل ما أعطاهم. قال لوثر: "إن أسلوب روح الله هو أن يقل تفكيرنا في الأمور الضارة، وأن نفكر أكثر في الأمور الصالحة، فإذا سمح الله لنا بصليب؛ فذلك ليس شيئا، وعندما يحسن الله إلينا فهذا عظيم". فإذا عصفت تجربة على المؤمنين، فعليهم أن يشكروا الله أنها ليست عنيفة كما كان يمكن أن تكون. والروح القدس يُعلِّم المؤمنين أن يُعظِّموا من شأن البركات التي يتمتعون بها، وأن يقلِّلوا من شأن مشاكلهم، أما الشيطان فأسلوبه عكس ذلك. تأمل الإسرائيليين في الصحراء عندما قالوا لموسى: "أقليل أنك أصعدتنا من أرض تفيض لبنًا وعسلاً لتميتنا في البرية، حتى تترأس علينا ترؤسًا؟" (عد١٦: ١٣). لقد ملأ روح التذمر قلوبهم إلى الدرجة التي جعلتهم يشوهون الحقيقة؛ فمصر أرض العبودية والسخرة والضرب وذبح أطفالهم، لم تكن أرضًا "تفيض لبنا وعسلا". لقد تعرضت قيادة موسى لسَحْب الثقة، كما تم

تشويه حقيقة دوافعه. والمؤمنون قد يفعلون هكذا عندما تأتي المشاكل، فيجرَّبون بأن يظنوا أنهم كانوا أسعد حالا قبل الإيمان، وهذا الظن في حد ذاته يجعلهم يشعرون بالتعاسة.

٨- إن التذمر ليس خطية وحسب بل هو حماقة؛ حيث أن كل ما نجنيه منه هو التعاسة، فما فائدة التذمر على شيء لا نملكه؟ هل يُسهّل هذا علينا أن نتمتع بما عندنا؟ هل يُشبع الطفل جوعه إذا رفض الخبز لأنه لا يوجد كعك؟ لا فائدة إذن من التذمر. يقول الرب يسوع: "من منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعا واحدة؟" (مت٦: ٢٧). والإجابة الوحيدة هي: "لا أحد!" قد يشغل الناس أنفسهم بالهموم إلى حد الموت، لكن التذمر لا يفيدهم شيئا. وقد يمنع الله عنهم بركة معينة حتى يصبحوا في حالة ذهنية مناسبة لقبول البركة؛ لأنه لو منح الله البركة للمؤمنين وهم في حال التذمر، فقد يجد المؤمنون أرواحهم في حالة من المرارة لا تمكِّنهم من تقدير إحسان الله لهم. فالحقيقة هي أن التذمر حماقة، لأنه يحوِّل الأمور إلى ما هو أسوأ، فالمؤمنون المتذمرون هم مؤمنون متكبِّرون يرفضون الخضوع لإرادة الله لهم. إنهم يشبهون البحارة الذين يتذمرون لهبوب العاصفة، عوضا عن تجهيز سفينتهم لمواجهتها. أما البحارة الأذكياء فيذعنون للعاصفة ويُنزلون القلاع.

والأمران الأخيران اللذان يمكن أن نذكرهما عن التذمر، هما أمران خطيران جدا؛ فالتذمر يثير غضب الله، فقد غَضِب الله عندما تذمر الإسرائيليون، وهو يغضب عندما يتذمر المؤمنون. لقد عوقب الإسرائيليون لأنهم تذمروا، والمؤمنون أيضا يجب أن يحذروا، حتى لا يضيفوا إلى متاعبهم ما يعرضهم لعقاب الله. إن روح الإستياء والتذمر هي روح الشيطان؛ فالشيطان كان أول من تمرد، وأول من تذمر، وأول من لعنه الله. إن كل تمرد مستوجب اللعنة، وعلى المؤمنين أن يتحذروا جدا مما يقوله الكتاب المقدس عن التذمر.

أضف إلى ذلك أن الله قد يحرم أولئك الذين يتذمرون عليه من حمايته وعنايته. إن الموظف الساخط، معرض للإستغناء عنه، ليبحث عن وظيفة

أخرى، وقد يترك الله شعبه ليبحثوا عن سيد آخر، إذا هم تذمروا على الطريقة التي يعاملهم بها. وقد يكون هذا، لأنه يريد أن يؤدبهم ليجعلهم يثقون فيه، أو لأنهم ليسوا مؤمنين حقيقيين على الإطلاق.

التذمر ضار لأنه الخطوة الأولى في طريق الإنزلاق والسقوط. إن أولئك الإسرائيليين الذين تذمروا في البرية، لم يروا أرض الموعد!!!

الفصل السابع

كُفَّ عن التذمر

التذمر خطأ دائما وحماقة، ولكن هناك بعض المواقف، التي يكون فيها خطيرًا جدا، وفي هذا الفصل سندرس أربعة من هذه المواقف.

أولاً: التذمر يشكل خطورة حقيقية، عندما نكون قد نلنا بركات وفيرة. فمثلاً إذا بدأت مشاكل في حياتنا الكنسية، نُجرَّب بأن نتذمر، وننسى أن نشكر من أجل حرية العبادة التي نتمتع بها، بينما يوجد مؤمنون في بلاد أخرى معرضون للسجن أو الموت لأنهم يتبعون المسيح. وإذا بارك الله كنيسة أخرى فقد نجرَّب بالغيرة والتذمر، وننسى أن نشكر لأن الله كما باركهم باركنا أيضًا، وإن كان بطريقة مختلفة. ربما يأتي دورنا في البركة بعد ذلك، فالذي باركهم يمكنه أن يبارك كنيستنا أيضًا. وعندما يحسن الله إلى كنيستنا في وقت نمرُّ فيه نحن بمشاكل شخصية، نجرَّب بأن ننسى أن نشكر الله على إحسانه للكنيسة، عوض أن نتذمر على مشاكلنا الشخصية. علينا أن نكون قادرين دائمًا على الابتهاج عندما يُحسن الله إلى كنيسته.

ثانيًا: يكون التذمر خطيرًا جدا، إذا كنا نتذمر على أمور تافهة. إنه لمن الحماقة أن تغتم أم من أجل طفلها الذي يتمتع بصحة جيدة؛ لأنه وُلِد وفي جسده (وحمه) صغيرة. لقد أخطأ الملك آخاب، الذي كان يحكم مملكة بكاملها عندما اغتم واكتأب؛ لأنه لم يمتلك كرمًا معينًا. كذلك من الحماقة أن يتذمر المؤمنون بسبب أشياء تافهة.

ثالثًا: التذمر خطيرٌ جدا إذا صدر من الذين أجزل الله عليهم إحسانه. لو أن مسافرا غريبًا قُدِّمت له ضيافة مجانية، فأشار إلى شيء لم يعجبه، فإن هذا يمثل وقاحة وجحودًا. أليس المؤمنون غرباء في هذا العالم، وكل ما عندهم أخذوه مجانًا من الله؟ فإن كان الله كريما معهم هكذا، فلا مبرر لتذمرهم.

رابعًا: يكون التذمر خطيرًا جدا، إذا كانت متاعبنا جزءًا من خطة الله لاتضاعنا. يقول الكتاب المقدس: "إن أخنوخ سار مع الله"، وهذا يعني أنه رأي ما كان الله يعمله في حياته وخضع له، ورتَّب حياته تبعا لذلك. إن المؤمنين مهيأون للخضوع لما يريده الله، حتى في وقت الضيق. إنهم واثقون أنه يعمل هذا ليدرِّبهم على التواضع، وينمي حياتهم الروحية.

من الخطأ أن نتذمر، لأن الله يعمل ما هو لخيرنا؛ ومن الخطأ بصفة خاصة، أن نستمر في تذمرنا لأن الله مستمر في الإحسان إلينا. لا شك أن تحمل التأديب ليس بالأمر السهل، لكن الكتاب يخبرنا بأنه " أخيرًا يعطي الذين يتدرَّبون به ثمر بر للسلام" (عب ١٢ : ١١). وكلما اختبر المؤمنون يد الله التي تضعهم، كلما وجب عليهم أن يقدروا عناية الله بهم.

عندما نجد أنفسنا نتذمر على أحد هذه المواقف، فإنها الآن ساعة لنكف عن ذلك. لكن لنتأمل مرة أخرى في الموقفين الثالث والرابع، لنرى أن المؤمنين دائمًا في موقف الذين أحسن الله إليهم إحسانا وافرًا. إنهم دائمًا في موقف الذين يعمل الله ما هو لخيرهم، لذلك يكون التذمر خطيرًا عندما يصدر منهم. وهذا يعني أن الوقت المحدد للكف عن التذمر لا يتغير، إنه الآن.

الفصل الثامن

لا عذر لك

منذ أن سأل الله آدم وحواء عن الخطية الأولى، والناس رجالاً ونساءً، يقدمون أعذارا لسلوكهم، وإليك بعض الأعذار التي يقدمونها عن تذمرهم.

١- "أنا لا أتذمر، بل أعبِّر عن الحقائق". لا شك أنه جيد أن ينظر المؤمنون إلى مواقعهم بواقعية، لكن لا يجب أن يتذمروا، بل على العكس، فإن وعيهم بالحقائق يعني أيضا أنهم واعون بعظم بركة الله لهم. فإذا فكروا في مشاكلهم أكثر من تفكيرهم في مراحم الله، فإنهم يكوّنون صورة مشوهة عن الحقائق. والوعي بالحقائق لا يمنع المؤمن من خدمة الله كما ينبغي أن تكون الخدمة، لكن التذمر بسبب مشكلته، هو الذي يمنعه من الخدمة. فلنواجه الحقائق مهما كان الثمن، ولابد أن يقودنا ذلك إلى الشكر لله، ليس على ما فعله من نحونا فحسب، بل أيضا على ما فعله نحو الآخرين. أما إذا كنا نحسد الآخرين، فذلك معناه أننا نفكر في مشاكلنا أكثر مما ينبغي، وأننا لا نفكر في وجود الله بالدرجة الكافية!!

٢- "أنا لا أتذمر، لكني شاعر بذنبي". من السهل أن تقول هذا، ولكن عندما يزول سبب الضيق سرعان ما يختفي الإحساس المزعوم بالذنب، وهذا يدل على أنه لم يكن هناك أي تبكيت على الخطية على الإطلاق. إن المؤمنين المتألمين بسبب الخطية فعلا، لا يريدون أن يضيفوا بتذمرهم إثما آخر، بل بالأولى سيكونون سعداء أن يخضعوا لتأديب الله.

٣- "أنا لست سعيدا لأني لا أشعر أن الله معي". لكن مجرد معاناتنا لا تعني أن الله قد تركنا. إن الأب لا يكون قد انقلب ضد ابنه عندما يؤدبه. لقد وعد الله أن يكون مع شعبه، وبصفة خاصة في أوقات الضيق: "إذا اجتزت في المياه فأنا معك، وفي الأنهار فلا تغمرك" (إش٤٣: ٢). إذًا فالله موجود، ولكن يبدو

أن بعض المؤمنين لا يشعرون بذلك، لأن روح التذمر قد أبعد كل إحساس بحضور الله، فإذا أرادوا أن يشعروا بقربه، عليهم أن يكونوا هادئين، وخاضعين، وحريصين على أن يكونوا كما يريد الله أن يكونوا.

٤- "ليس الألم هو ما لا أستطيع تحمله بل موقف الآخرين". حتى موقف الآخرين في يدي الله، بل حتى الأشرار، يستطيع الله أن يستخدمهم لتحقيق أغراضه، وعلى المؤمنين ألا ينسوا أن الأشرار تحت دينونة الله، وعليهم أن يصلُّوا من أجلهم. ومهما كانت معاملة الآخرين قاسية، فعلى المؤمنين أن يتذكروا دائما أن الله صالح مع أولاده. عليهم أن يحمدوه، ولا عذر لهم في تذمرهم.

٥- "لم أكن أتوقع هذا إطلاقًا..." يجب أن يتوقع المؤمنون الصعوبات في هذه الحياة، وأن يستعدّوا لأوقات الضيق، ليتمكَّنوا من مواجهتها عندما تحل. لكن ترى كم مرة يمكنهم القول: "لم أكن أتوقع هذا" عندما يميزهم الله بجوده؟!

٦- "إن مشكلتي أسوأ من مشاكل الآخرين". كيف عرفت ذلك؟ ربما يكون تذمرك قد قادك إلى المبالغة. لكن إن كان قولك صحيحا، فهذا يعني أن الله قد أعطاك فرصة لتمجده أعظم مما أعطى الآخرين، فعندما يرون كيف تتغلب على مشكلتك الضخمة سيمجدون الله، وربما يتشجعون في التغلب على مشاكلهم البسيطة.

٧- "إن مشكلتي تمنعني من خدمة الله". أحيانًا لا يستطيع المؤمنون أن يخدموا الله كما يتمنون؛ بسبب ظروفهم. إن الرغبة في خدمة الله، أمر طيب ولا شك، ومن الطبيعي أن نحزن عندما نعجز عن ذلك، ولكن هذا ليس عذرا للتذمر. نحن أعضاء في جسد المسيح، ومن الأفضل أن تكون عضوًا غير هام في جسد المسيح، من أن تكون شخصًا مهمًّا دون أن تكون عضوا في هذا الجسد. إن المؤمنين جميعا لهم دعوة روحية لكي يتمموها، مهما كان تصورهم لدرجة أهميتهم؛ فالأعمال البسيطة من مؤمن متضع تسر الله أكثر من كل الإنجازات الشهيرة في التاريخ، فما يطلبه الله ليس الشهرة أو الإنجازات البرَّاقة

بل الأمانة والصبر. والذين يتحلَّوْن بمثل هذه الصفات الروحية، سيجازون في السماء. وعندما يفهم المؤمنون المتضعون ذلك، يدركون أن ليس لديهم أي مبرِّر للتذمر.

٨- "لا أستطيع تحمل ظروفي لأنها دائمة التقلُّب". قد تفيدنا ظروفنا المتقلِّبة في أن نتعلم الثقة في الله في كل خطوة نخطوها. وفي كل الأحوال فإن مقامنا الروحي مستقر، وخيرنا الأبدي مضمون، وفي نفس الوقت فإن المسيح يمنحنا بركات كثيرة جدا "ومن ملئه نحن جميعا أخذنا، ونعمة فوق نعمة" (يو١: ١٦).

٩- "كنت غنيا والآن افتقرت". ليس هذا عذرا للتذمر، أليس في مقدورك أن تكون شاكرًا؛ لأنك كنت يومًا ما غنيًّا، وكانت لك الفرصة للاستعداد ليوم الفقر هذا؟ أو لأنك كنت في صحة جيدة، وكانت لديك الفرصة للاستعداد ليوم المرض هذا؟ أو لأنك كنت حرا وكانت لديك الفرصة للاستعداد ليوم الاضطهاد؟ إن البحار الحكيم يستغل الأيام الهادئة، ليُعدَ سفينته لمواجهة العواصف. ليس ما يُلزِم الله أن يعطي المؤمنين أي شيء، وعليهم أن يكونوا شاكرين من أجل كل بركة نالوها في الماضي وينالونها في الحاضر، وهم غير مستحقين لها. هل من الأمانة أن نتذمر من أجل صعوبات قليلة نواجهها في رحلة سادها التمتع بجوانب أخرى؟ لعل العذر الذي نحن بصدده يمكن ترجمته على النحو التالي: "أنا تكبدت مشقات كثيرة حتى حصلت على الثروة، وليس من العدل أن أفقدها". لكن قبل أن يتضايق المؤمنون كثيرًا من جهة أي أمر، يجب أن يتأكدوا أنهم على حق في ضيقهم هذا، وبالتالي يجب أن يكونوا على استعداد أن يكفُّوا عن تذمرهم، إذا كان الأفضل لهم أن يغيِّروا موقفهم بموقف آخر يكون أكثر تمجيدا لله.

أسئلة دراسية في الفصول من السادس إلى الثامن

١- إقرأ في٢: ١٤، ١٥، هل تؤمن أن التذمر خطية؟

٢- إقرأ إش٥٣: ٣- ٧. إن ربنا يسوع المسيح لم يتذمر حتى عندما صُلِب ظلما وبقسوة. كيف يمكن أن يؤثر خلق وسلوك المسيح على خلق وسلوك المؤمن؟

٣- إقرأ في٤: ٦، ٧ وقارن بها ١تس٥: ١٦ – ١٨. ما هي العلاقة بين الصلاة والقناعة المسيحية؟

٤- كان تذمر الإسرائيليين على الله، الذي أخرجهم من أرض مصر، تذمرا مستمرا، وقد غضب الرب عليهم وعاقبهم. هل تعتقد أن الله يغضب علينا عندما نتذمر من جهة بعض الأشياء؟ وهل يمكن أن تكون بعض متاعبنا بمثابة عقاب الله لنا بسبب تذمرنا؟

٥- إقرأ عب١٢: ٧ – ١١. كيف يكون الضيق والصعاب جزءا من تدريبنا للبر؟ وما هو الموقف الصحيح المطلوب لمثل هذا التدريب لضمان نجاحنا؟

٦- ما هي الطرق التي تبحث عنها لتبرير تذمراتك؟

٧- ما الذي تعلَّمته عن نفسك من هذه الدراسة؟

الفصل التاسع

وسيلة السعادة

إن السعادة المسيحية أو القناعة المسيحية هي النقيض لروح التذمر. إنها تبدأ داخل قلوب المؤمنين. لا يمكن أن تحتفظ السفينة بتوازنها في البحر بدعامات من خارجها، بل من داخلها. هكذا لا يوجد شيء خارجي يمكن أن يضمن للمؤمن سعادة مستمرة، إنما الحاجة إلى نعمة في الداخل. وإذا كان للمؤمنين هذه النعمة في داخلهم، فيمكنهم أن يتبعوا بعض الخطوات العملية التي تساعدهم في الحصول على سعادة حقيقية.

أولا: عليهم أن يتحذروا من الإنغماس في مشاغل هذا العالم. وليس المقصود بهذا، الاعتزال عن العالم، بل قد يقودهم الله ليشغلوا مهام معينة في هذا العالم. ولكن إن أراد المؤمنون أن يختبروا سعادة حقيقية، عليهم ألا يتعدَّوا الحد الأدنى من الإنشغال بأمور هذا العالم.

ثانيا: عليهم أن يطيعوا كلمة الله، المُعلَنة في الكتاب المقدس. وهذا ليس بالأمر العسير؛ فالكتاب المقدس يوضح أن الله يجعل كل الأشياء تعمل معا للخير للمؤمنين (رو٨: ٢٨)؛ لذلك فعندما يخدمون الله، إنما هم يخدمون سيدًا وضع في قلبه أن يوفر لهم الأفضل. عندما يفهم المؤمنون هذا يمكنهم أن يخضعوا لإرادة الله بكل سرور.

ثالثا: وعلى مثال أبطال الإيمان الذين ذكروا في عب١١ يجب أن يعيشوا بالإيمان ليتفهموا ظروفهم أو ليتقبلوها، وأن يكون إيمانهم، ليس محصورا في وعود الله فقط، بل في الله نفسه؛ فهو يعتني بهم للدرجة التي تغنيهم عن القلق من جهة كل الأشياء. قال سقراط (٤٦٩ – ٣٩٩ ق.م)، الفيلسوف الوثني: "مادام الله مُهتمًّا بكم بهذه الدرجة، فلماذا تهتمون بأي شيء؟" في

أوقات الضيق، يجب على المؤمنين أن يلقوا أحمالهم على الله، وأن يُسلِّموا طرقهم له. إن الثقة بالله ستحقق لهم حينئذ السلام والسعادة.

رابعا: يجب أن يبذلوا كل الجهد ليكون لهم الذهن الروحي لكي "يطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله" (كو٣: ١). إذا تقلَّص الوقت الذي يفكر فيه المؤمنون في الأمور السماوية – بينما هم يقضون الأوقات الطويلة في التفكير في رغباتهم – فإنهم يجلبون على أنفسهم التعاسة. أما إذا انشغلوا بالأمور السماوية، وقضوا وقتا في الشركة مع الله، فلن يصابوا بالاكتئاب عندما يواجهون مشاكل في الأمور الأرضية، وهذا يرتبط ارتباطا وثيقا بالخطوة التالية.

خامسا: على المؤمنين ألا يتوقعوا الشبع من وفرة الأمور الأرضية، فقد كتب بولس: "إن كان لنا قوت وكسوة فلنكتف بهما" (١تي٦: ٨). إن الذين يتطلعون إلى أشياء كثيرة، غالبا ما يصابون بالإحباط، ولذلك يجب على المؤمنين أن يكونوا قانعين بما عندهم. يجب أن يتبعوا نصيحة باروخ: "وأنت هل تطلب لنفسك أمورا عظيمة؟ لا تطلب" (إر٤٥: ٥). أما إذا توقع المؤمنون أمورًا روحية عظيمة، فلن يصابوا بالإحباط.

سادسا: يجب أن يموتوا عن العالم. قال بولس الرسول: "إني... أموت كل يوم" (١كو١٥: ٣١). يؤمن المؤمنون بأن المصدر الحقيقي والوحيد للسعادة لا يوجد إلا في الأمور الروحية. وهناك نوع من الموت عن أمور هذا العالم، ويزداد ظلام هذا الموت في نور مجد الله ونعمته.

سابعا: يجب ألا يجترُّوا متاعبهم. إن الطفل الذي يخدش البثور التي تظهر على جلده، يعطل شفاءها. وقد يفعل المؤمنون مثل هذا بمشاكلهم، فلا يتوقفون عن الحديث عنها، للدرجة التي بها تقضي على أوقات صلاتهم؛ مما يؤدي إلى شعورهم بحال أردأ؛ لأن مشاكلهم تبدو لهم أكبر من حجمها الحقيقي. ما أجمل أن نفكر في إحسان الله لنا! عندئذ لا نجد وقتا للتذمر والضيق. عندما ماتت زوجة يعقوب وهي تلد، طلبت أن يسمَّى المولود بن

أوني"، ومعناه "ابن حُزني"، على أن يعقوب لم يُرِد أن يكون هذا الولد سببًا في تذكيره بالحزن الشديد، لذلك دعاه "بنيامين" ومعناه "إبن يميني". هذا الاتجاه الإيجابي يُعِين المؤمنين دائما ليجدوا السعادة الحقيقية.

ثامنا: بناء على ما سبق، عليهم أن يجتهدوا أن يكون تفكيرهم عن معاملات الله معهم تفكيرًا إيجابيا. ياله من صديق مسكين ذلك الذي يُسيء فهم أفعال صديقه دائما، وينسبها إلى كل الدوافع الجائرة. وبنفس الطريقة يخطئ المؤمنون عندما يسيئون فهم معاملات الله معهم. عليهم أن يفكروا بإيجابية فيما يعمله الله، ويعللون هذا بالقول مثلاً: "إن الله رأى في ولعي بهذا الأمر خطرا عليَّ، لذا ففي رحمته أبعده عني"، أو "إن الله رأى أن استمراري في الغِنَى يُعرّضني للسقوط في الخطية، ولذلك ففي رحمته أفقرني"، أو "إن الله يُعدُّني لمهمة معينة في فكره، وأنا مسرور بذلك". إن المحبة لا تفرح بالإثم (١كو١٣: ٦)، فإذا أحببت أحدًا فإنك تفسِّر أفعاله تفسيرا رقيقا، فإذا كانت هناك تسعة تفسيرات سيئة لمعاملات الله معك، وتفسير واحد طيِّب، إلزم الواحد وانسى التسعة.

تاسعا: يجب ألا يهتموا كثيرا بآراء الآخرين، فمثلاً قد يأتي أحدهم ليسلب المؤمنين سعادتهم التي يتمتعون بها، عندما يخبرهم بأن شيئا ما ينقصهم. فإذا كانوا قانعين قبل سماع رأي الآخرين، فلماذا يفسحوا المجال لأفكار غير المؤمنين لتكدِّرهم؟ إن السعادة المسيحية الحقيقية لا تعتمد على ما يقوله الآخرون.

كيف يحصل المؤمنون على السعادة؟ يمكننا تلخيص كل ما سبق في هذه العبارة: "على المؤمنين ألا يدعوا مباهج العالم تأسرهم، وعندئذ لن يحزنوا إذا فقدوا الممتلكات أو العائلات، أو الشهرة، أو غير ذلك.

الفصل العاشر

ثبات السعادة

كيف يحتفظ المؤمنون بسعادتهم عند حلول أوقات الضيق؟ في هذا الفصل الأخير سندرس خمسة أفكار يمكن أن تعين المؤمنين على الاحتفاظ بسعادتهم في أوقات الضيق.

أولا: عندما يمر المؤمنون في ضيق، عليهم أن يتذكروا عظمة الأشياء التي أعطاها لهم الله، وعدم أهمية الأشياء التي تنقصهم؛ فهم مجرَّبون بأن يشتهوا الأشياء الكثيرة التي يتمتع بها غير المؤمنين، وهذا قد يسلبهم الشعور بالاكتفاء، مع أنهم يتمتعون بامتيازات روحية لا يدركها غير المؤمنين. لقد أعطاهم الله "كل بركة روحية في السماويات في المسيح" (أف١: ٣)، ولهذا فمن الخطأ أن يتعسهم افتقارهم لأشياء أرضية وقتية.

ثانيا: عندما يمر المؤمنون في ضيق، عليهم أن يتذكروا البركات التي حصلوا عليها في الماضي، فالشخص الذي بلغ من العمر الخمسين سنة، عانى من مرض لمدة سنتين، يجدر به أن يشكر الله من أجل الثماني والأربعين سنة من الصحة الجيدة، عوض أن يتذمر على سنتين في المرض.

ثالثا: المؤمنون الذين يمرُّون في أوقات ضيق، عليهم أن يتذكروا أن الحياة في هذا العالم قصيرة، بينما الأبدية طويلة. إن ضيقاتهم ستنتهي سريعًا. يقول الكتاب المقدس: "إن خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبدياً. ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي ترى بل إلى التي لا تُرى؛ لأن الأشياء التي ترى وقتية، وأما التي لا تُرى فأبدية" (٢كو٤: ١٧، ١٨).

رابعا: يجب على المؤمنين الذين يمرُّون في أوقات ضيق، أن يتذكروا أن أناس الله القديسون قد عانوا من تجارب أسوأ من تجاربهم كثيرا. لقد كان على يعقوب، أن يرضى بالعمل عند خاله سنوات طويلة مع أنه الوارث لإبراهيم

وإسحق. وموسى الذي عاش في قصر ملك مصر، قضى بعد ذلك أربعين سنة يعمل راعيا للغنم، وأخيرا عاد إلى مصر فقيرا. وكان على إيليا أن يختبئ وتطعمه غربان، أما إرميا فقد أُلقي في الجُبّ. ومارتن لوثر المصلح، لم يملك شيئا ليتركه لزوجته وأولاده بعد موته، فهل من التعقل أن يتوقع المؤمنون اليوم إعفاءهم من المعاناة، بطريقة لم تُمنَح لأناس الله العظام؟ وفوق كل ذلك، فإن المثل الأعظم في هذا – كما في كل الأمور – هو الرب يسوع المسيح، الذي لم يكن لديه ما يتوفر للثعالب والطيور. لم يكن له أين يسند رأسه!

خامسا: يجب على المؤمنين الذين يمرُّون في أوقات ضيق، أن ينشغلوا بشكر الله من أجل ما أعطاهم. لقد أعطاهم طبيعة روحية جديدة، بها يمكنهم أن يمجدوه بأساليب تسر قلبه، وسيكتشفون أنه توجد سعادة حقيقية في أن يمجدوا الله، في الوقت الذي يحرمهم من أشياء عند غيرهم.

إذن هذه هي السعادة، فهل نلناها؟ إن كلمة الله ترينا السبيل إليها، فهل بدأنا نسلك ذلك السبيل؟ إن الكلام عن السعادة أسهل من تحقيقها؛ لذلك يجب على حديثي الإيمان أن يجدُّوا في غرس روح الهدوء والقناعة في نفوسهم منذ بداية حياة الإيمان المسيحي، وعلى القدامى في حياة الإيمان أن يدركوا أنه أمامهم الكثير ليتعلموه؛ فلا يمكن لمؤمن حقيقي أن يشعر بالاكتفاء حتى يجد السعادة الحقيقية التي يمنحها الله.

أسئلة دراسية في الفصلين التاسع والعاشر

١. يُذكِّرنا الفصل التاسع بأن روح القناعة تأتي من عمل نعمة الله في القلب، فهل افتقارنا إلى روح القناعة يعني أن الخطأ ليس فينا بل من الله؟ هل يمكن أن نستمر في الشكوى والتذمر وننتظر حتى يغيِّرنا الله؟

٢. لقد تعلمنا أن أحد الطرق التي تجعلنا قانعين هو عدم الإنغماس في أمور هذا العالم (انظر مت٦: ١٩ – ٣٤، كو٣: ١ – ٤) غير أن المؤمنين عليهم أن يعيشوا في العالم، وعلينا مسئوليات أرضية كثيرة نحو عائلاتنا ورؤسائنا...الخ. في ضوء هذا كله، استخدم عبارات عملية لتوضيح المقصود بـ " عدم الإنغماس في هذا العالم".

٣. أقرأ أع١٦: ١٦ – ٢٥، وحاول أن تتخيَّل نفسك مكان بولس وسيلا، ثم تخيَّل الشعور الذي يفرض نفسه عليك عندما تُضرَب وتُسجَن بسبب صلاح فعلته. ما أهمية الصلاة والتسبيح في المحافظة على روح الرضى في وقت الضيق؟

٤. عندما اجتزت في أوقات من الضيق، ما الذي ساعدك على أن تحتفظ بشعور الرضى والاكتفاء؟

٥. عندما يجتاز المؤمنون الآخرون في تجارب، فما هي أفضل طريقة تساعدهم أن يحتفظوا بروح الرضى بمعاملات الله معهم؟

٦. ما الذي تعلَّمته من هذا الكتاب؟ ما هو التغيير الذي سيحدثه في حياتك؟

سلسلة التراث الإنجيلي

التراث الإنجيلي غني بالكتابات التي ظهرت مع حلول عصر الإصلاح في القرن السادس عشر، وكذلك المؤلفات الروحية التي صدرت بعد ذلك. بعض هذه الكتابات ترجم إلى لغات كثيرة وأعيدت طباعتها عدة مرات، مثال ذلك كتابات المُصلحين لوثر و كلفن و مجموعة من مؤلفات القادة والمفكرين الإنجيليين، في الأجيال المتتابعة، وقادة الفكر الإنجيلي المصلَح.

ما كتبه المؤلف جيرميا بارُوز، تسبب في اختبار الكثيرين من المؤمنين لتلك السعادة الراسخة التي تهبها شركتنا مع الرب يسوع. في هذا الكتيب تقدم الرابطة تعريبًا لصيغة مبسطة موجزة لذلك العمل المبارك.

البركة، كل البركة هي في الشركة الحميمة والمتواصلة، مع من وهب نفسه لتكون لنا الحياة الفضلى، فالقرب من الرب يسوع هو أساس السعادة الراسخة.